الدرس السابع

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾

(الحجر: ٨٥-٩٩)

التَّسْرية عن رسول الله ﷺ وإيناسه وشدُّ أزره :

في هذه الآيات الخمس عشرة الأخيرة من السورة تخاطِبُ رسول الله ﷺ إيناسًا له ، وشدًّا لأزره ، وتَقْويةً لعَضُده ، في مواجهة أهل الشِّرك ، وأهل الباطل ، الذين سَخِروا من دعوته ، واستهزؤوا بها ، وكادوا لها كَيْدًا .

مخاطبة الله سبحانه رسوله بكاف الخطاب عشر مرات :

حين يخاطب الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ ، نجدُ كافَ الخطاب : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ ، ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ ، ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ

ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ ، ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾ ، ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ ، وهكذا ، عشر مرات فيها خطاب للنبيِّ ﷺ .

أوامر ونواهٍ في عشر آيات :

وكذلك أمرٌ ونهيٌ حوالي عشر مرات:﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾،﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ ، ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ ، ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، ﴿ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴾ ، ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ ، ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ، ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ، ﴿ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾ ، ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ .

أوامر ونواهٍ : كلُّها خطابٌ للنبيِّ ﷺ ، وكلها وصايا وتوجيهات ربانية للرسول ، ولمن بعده من الدعاة ، بعد أن قصَّ عليه قَصَصَ السابقين من الأمم السَّابقة .

والأمم حين يقصُّ القرآن قَصَصَهَا ، لا يَقْصُد بها التسلية ، ولا يَقْصُد بها مجرَّد إزْجَاء الوقت ، ولكن للعبرة بها : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (يوسف:١١١) ، ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ (هود:١٢٠) ، ومن هنا جاء الخطاب للنبيِّ ﷺ .

خَلْقُ السموات والأرض بالحقِّ لا بالباطل وموقف أولي الألباب :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾

بدأ هذا الخطاب بقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ ، ما خلق الله هذا الكون عُلويَّه وسفليَّه ، السماوات العُلى ، والأرض التي جعلها الله للنَّاس بساطًا وفراشًا ومهادًا ، وما بين السماوات والأرض من مخلوقات ، لم يَخْلق الله هذا العالم ، هذا الكون كلَّه باطلاً ، ما خلقه إلاَّ بالحق والحكمة

والمصلحة ، فاللهُ من أسمائه : الحكيم ، فلا يخلق شيئًا عبثًا ولا اعتباطًا ، لا يخلق شيئًا باطلاً ، ولا يشرع شيئا عبثًا ولا اعتباطًا أيضًا .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (آل عمران:١٩٠،١٩١) ، يقول هؤلاء أُولوا الألباب ، أهل الذكر والفكر ، الذين يذكرون الله تعالى ، ويتفكَّرون في خلق السموات والأرض : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ ﴾ ، يستحيل أن تخلق هذا الكون باطلاً ، لا بدَّ أنَّك خلقته لحكمة ، عَلِمَهَا مَنْ عَلِمَهَا ، وَجَهِلَهَا مَنْ جَهِلَهَا . وهذا الذي نفاه أولوا الألباب ، ذكره القرآن حينما قال تعالى في سورة ص : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ (ص:٢٧،٢٨).

العدل الإلهي في مجازاة المحسن بإحسانه ومعاقبة المسيئ بإساءته :

هذا هو الباطل أن يُسوِّي اللهُ بين المُحسن والمُسيئ ، بين المؤمن والكافر ، بين المُتَّقي والفاجر ، هذا يتنافى مع العدل ، ويتنافى مع الحكمة ، هذا هو الباطل : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ ، الذين كفروا ظنُّوا أن سُوق هذه الحياة سَتَنْفَضُّ ، وقد ظَلَمَ فيها الظَّالم ، وَقَتَل فيها القاتل ، وَسَرَقَ فيها السّارق ، وطغى فيها الطَّاغية ، وارتكبت فيها القبائح ، فلم تَطُلْ هؤلاء يدُ القانون ، فهم حرَّاس القانون ، (حاميها حراميها) ، هم الذين كانوا من المفترض أن يُعَاقِبوا المجرمين ، فما بالنا إذا كانوا هم أعتى المجرمين ، فمَن يعاقبهم ؟

مَن يعاقب فرعون وهامان وقارون؟ من يعاقب نمروذ وأباجهل والمتمردين في الأرض؟ مَن يعاقب الأشرار والفجار الذين يملكون القوة ، ويمكلون الثروة ،

ويملكون السلطة ؟ هذا هو الباطل ، إذا كانت الحياة ستنفضُّ ، وقد عاش هؤلاء مُتَمَتِّعِين بالأموال ، مُتَمَتِّعين بالسُّلطان ، آكلين لحقوق غيرهم ، دائسين على الضعفاء بأقدامهم ، ولم يأخذوا عُقُوبَتهُم ، تكون هذه الحياة باطلةً ، إذا خرجَ الظَّالم والطَّاغية من هذه الحياة ولم يَنَلْ عقوبته اللَّائقة بمثله فأين العدل ؟

هناك أناسٌ لم تَنَلْهم يدُ القانون في الدنيا . يقول بعض رجال القانون : القانون حمارٌ ؛ لأنَّ كثيرًا من الناس يمكرون على القانون ويَغْلِبونه ، عنده حِيَلٌ للخروج من القانون ، في أمريكا يوجد من يُؤَلِّف كتبًا للتحايل على القانون ، فماذا يفعل القانون مع هؤلاء؟ فكما قلنا : الذين في أيديهم تطبيق القانون يخونون القانون ، إذا كان الظَّالم سيخرج من الحياة دون أن ينال عقوبة ظُلْمِهِ ، والأخيار الذين عاشوا طوال حياتهم لحراسة الحقِّ ، وخدمة الخير ، ومنفعة الغير ، وعمل الصَّالحات ، واستباق الخيرات ، ثمَّ لم يَنَالُوا جزاءهم ، بعضهم قُتلَ ، ربما يقول بعض الناس : نالوا جزاءهم براحة ضمير وهدوء نفس وطيب حياة ، لا ، بل قتلوهم في شبابهم ، لم يَنَل المقتول المظلوم جزاء ما عمل من صالحات ، وما قدَّم من خيرات .

إذا انتهت الحياة على ذلك فهي باطلة ؛ لأن الإنسان لم ينَل جزاءه ثوابًا أو عقابًا ، لهذا أكَّد القرآن على أنَّ الله يبعث مَن في القبور ، ويقيم لهم محاكمة ظاهرة عادلة ، ويُجازي المحسن على إحسانه ، والمسيئ على إساءته ، فلا يقبل أن تنتهي هذه الحياة ولا تكون هناك حياة أخرى ، هذا باطل ، الحقُّ أنَّ الله خلق هذه الحياة لتكون مزرعةً لحياة أخرى ، نحن نزرع هنا لنحصد هناك ، اليوم عمل ولا حساب ، وغدًا حسابٌ ولا عمل ، فلا بدَّ أن تكون هناك حياة أخرى تُوفَّى فيها كلُّ نفس ما كسبت ، وتُخلَّد فيما عملت ، إنْ خيرًا فخير ، وإنْ شرًّا فشر : ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ** ﴾ (الزلزلة:٧،٨) ، كلُّ إنسان سيرى جزاءه : ﴿ **يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ** ﴾ (الزلزلة:٦) ، يرى عمله بعينه : ﴿ **ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا** ﴾ (الإسراء:١٤).

لهذا قال الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ ، وكما قال تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴾ (النجم:٣١) ، ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (الجاثية:٢١،٢٢).

هذا هو الحق أن تُجْزى كلُّ نفس بما كسبت ، لا يضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى ، لا العمل الصالح يضيع ، ولا العمل السيئ يضيع ، هذا يُجْزى حسناتٍ ومثوبة ، وهذا يُجْزى على السيِّئات سيِّئات وعقوبة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الدخان:٣٨-٤٠) ، هذا هو الحقُّ ، الحقُّ الذي قامت به السماوات والأرض .

تأكيد قرب الساعة :

﴿ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ﴾

الساعة التي يُجْزى فيها المسيئ بإساءته ، والمُحسن بإحسانه ، وتُوفَّى كلُّ نفس فيها ما كسبت ، الساعة آتيةٌ ، بهذا التأكيد : ﴿ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ﴾ ، إنَّ هذه حرف توكيد للجملة الإسمية ، واللَّام في الخبر تأكيدٌ على تأكيد ، يؤكِّد أنَّ الساعة آتيةٌ لا ريْبَ فيها ، وأنَّ الله يبعث مَنْ في القبور .

﴿ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ ﴾ ، يوم القيامة بالبعث والحساب والجزاء ﴿ لَءَاتِيَةٌ ﴾ ، واقعةٌ وحاصلة[1] . وفيها يكون الحساب وفصل القضاء ، وكل آت قريب .

---

(١) وفيها يكون الحساب وفصل القضاء ، ومدَّة الحياة الدنيا قصيرة جدًّا بالنسبة إلى الآخرة ، فإذا أُوذيت في الله وأنت تؤدي رسالة ربك ، فلا تحزن ولا تقابل الأذية بمثلها .

الصفح الجميل :

﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾

الصفح الجميل هو : الحَسَن اللطيف بدون عتاب أو انتقام ، أي : تعامل مع الناس بالخُلُق الحَسَن ، ﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾ ، هكذا أمره الله سبحانه وتعالى أن يصفح عمن آذاه وظلمه ، ويترك عقابه ولومه ، وهو أبلغ من مجرد العفو ، ويوكده قوله تعالى : ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ﴾ (الزخرف:٨٩).

القرآن أمر بالصَّفْح الجميل ، والصَّبر الجميل : ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ﴾ (المعارج:٥) ، والهَجْر الجميل : ﴿ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ﴾ (المزمل:١٠) .

والصَّفْح الجميل : الذي لا تشديد في العتاب معه . والصبر الجميل : الذي لا شكوى معه . والهجر الجميل : الذي لا إيذاءَ معه . هكذا أمر الله سبحانه وتعالى رسوله : ﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾ فهو تعالى يأمر رسوله بكل معنى جميل .

القرآن يحثُّ على تذوق الجمال الحسِّي والمعنويّ :

القرآن يَحُثُّنَا على تَذوُّق الجمال في كلِّ شيءٍ ، الجمال الحسِّي كما ذكر سبحانه في معرض امتنانه بالأنعام في سورة النحل : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ ، حينما ترجعون بالأنعام بالإبل والبقر والغنم وهي ممتلئة البطون عند الرَّواح ، وحين تَسْرَحون بها ، منظرٌ جميلٌ ، لوحة فنيَّة رائعة ، لو رَسَمها فنَّان لقلنا : ما أجملها! كيف وأنت تراها في الطبيعة ، خَلَقَتْهَا يدُ الله ، التي أحسنت كلَّ شيء خلقه ، وأبدعت كلَّ شيء صنعه ، الجمال الحسِّي ، والجمال المعنويُّ في الأخلاق[1].

---

(١) والجمال في الصَّفح يكون بإبقاء الوجه طلقًا سمحًا لا تظهر عليه علامات الغضب أو الغيظ والكراهية ، وبإبقاء الكلام عاديًا لا تظهر فيه أمارات الاضطراب ، ويكون أيضًا بعدم شَغْل القلب برغبات الانتقام .

دعوى نَسْخ آية الصَّفح الجميل بآية السَّيف :

بعض المفسِّرين قالوا : هذه الآية كانت قبل آية السيف . آية السيف جاءت فقطعت رقاب مئة وأربعين آية أو مئتي آية من القرآن الكريم ، ولكن المفسِّرين المحقِّقين قالوا : هذا لا يُنْسَخ ، هذا أمرٌ بحُسْن الخُلُق ، وحُسْن الخُلُق هذا لا يمكن أن يُنْسَخ ، إنما بُعِثَ النبيُّ ﷺ لِيَتَمِّمَ مكارم الأخلاق[1] ، كيف تُنْسَخ مكارم الأخلاق؟ وقد جاء في القرآن المدني : ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (المائدة:١٣) ، والقرآن المكيُّ : ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (الزخرف:٨٩).

قال الفخر الرازي : (وقيل : هو منسوخ بآية السيف وهو بعيد ؛ لأن المقصود من ذلك أن يظهر الخلق الحسن والعفو والصفح ، فكيف يصير منسوخًا؟)[2] . فهذا ليس بمنسوخ .

إيناسُ النبيِّ ﷺ وتسليته :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[3]

كلمة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ : فيها نوعٌ من الإيناس ، لم يقل : إنّ الله هو الخلاَّق العليم . ولكن ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ ، فإنَّك تستوثق أنَّه معك ، لأنَّه ربُّك ، ليس غريبًا عنك ، ولا بعيدًا منك ، فهو يُربِّيك ويرعاك ، وهو يُدبِّر أمرك ، فلا تحزن ممَّا يقابلك به المشركون ؛ لأنَّ الله مُقدِّره وعالمٌ به ، وسينالون جزاءه .

---

(١) رواه أحمد (٨٩٥٢) وقال مخرجوه : صحيح ، والبخاري في الأدب المفرد في حسن الخلق (٢٧٣) ، والحاكم في تواريخ المتقدمين (٦١٣/٢) وقال : على شرط مسلم ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٥) ، عن أبي هريرة .

(٢) تفسير الفخر الرازي (١٥٨/١٩) .

(٣) الخلاق ، وزنه : فعّال ، مبالغة من اسم الفاعل من مصدر : خَلَق ، وأصله : (خَلْلاقُ) أدغمت اللام الأولى في الثانية . أي : هو خالقٌ كلَّ ذات وكلَّ حدث .

قدرة الله تعالى على الخلق :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ﴾ : المُوجد لما يشاء من العدم ، الخالق لجميع المخلوقات على الإطلاق . ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [1] : المحيط بخفايا الأمور ودقائقها . وذلك لأنَّه خلاَّق عليمٌ ، فهو قادرٌ على أن يُحْيِيَ المَوْتى [2]، وأن يُعِيدَ النَّاس مرَّةً أخرى ، كما قال عزَّ وجلَّ : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

(يس:٧٨-٨١) .

فالخلاَّق العليم هو القادر على الخَلْق ، الخلاَّق يخلق في كلِّ لحظة ، الملايين والبلايين والترليونات والدِّشِلْيونات من الخلق ، في كلِّ لحظة يُخلق من بني آدم ، ويَخلق من الحيوانات ، ويَخلق من الزواحف ، ويَخْلق من الطيور والحشرات ، ويَخلق من الأحياء المائية ، يَخلق من هذه الأشياء وغيرها ما شاء الله .

فصائل المخلوقات :

لو نظرتَ إلى فصائل المخلوقات لوجدتَ شيئًا عجيبًا ، ليست بالملايين ، لا بل بالمليارات ، وأكثر ، وَمُنْذُ فترةٍ قريبةٍ ذكروا أنَّ متحفًا في بريطانيا ، يُخزِّن بذور النباتات الموجودة في العالم ؛ لأنَّ بعضها يُمْكِن أن ينقرض في وقتٍ من الأوقات ،

---

(١) صيغة مبالغة من اسم الفاعل (عالم) من العلم ، وفي هذه الآية ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ قَصْر صفتي الخلاق العليم على الله تبارك وتعالى . وهو قَصْر حقيقيٌّ من قصر صفة على موصوف . وأداة القصر فيه تعريف طرفي الإسناد .

(٢) والآية كذلك تعلِّل ما سبق من التوجيه الكريم إلى الصَّفح الجميل ، فعليك أن تَكِلَ الأمور إلى ربك الخلاق العليم الذي لا يخفى عليه شيءٌ من أمرهم ، ليحكم بينك وبينهم .

فوضعوا البذرة الأخيرة ، وكان ترتيبها في العدد المليار ، وما زالوا يجمعون ، فانظروا إلى أنواع النباتات التي في دنيانا كم وصل عددها؟

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ﴾ ، هذا كُلُّهُ من خَلْق الله عزَّ وجلَّ : ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(لقمان:١١)، ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾(النحل:١٧)، الله هو الخلاَّق : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

هو يَخْلقُ ويعلم ما خَلَق وَمَنْ خلق ، الذي يخلق الشَّيء ألا يعلمه؟ ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الملك:١٤) يعلم كل ما خلق ، ويعلم الماضي والحاضر والمستقبل .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾

نِعَمُ الله على رسوله ﷺ :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [1] ، يَمْتَنُّ اللهُ تعالى على رسوله ﷺ ، ويُعَدِّدُ عليه النِّعم التي آتاه الله إيَّاها ، وهي نِعَمٌ كبرى ، نِعَمٌ عُظْمى ،

---

(١) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ ﴾ أعطيناك وأنزلنا عليك (المثاني) جمع مُثَنًّى بضم أوله وفتح ثانيه وتشديد النون مفتوحة . والمثنى هو المردَّد المكرَّر ، لتكرُّر قراءته دون سأم أو مَلَل بل بإقبال نفس وشوق ، وأيضًا لتكرُّر براهينه ومواعظه وقصصه بصور مختلفة لقطع سبل العذر على من يحاول الاعتذار يوم القيامة . (تيسير القرآن الكريم) للشيخ عبد الجليل عيسى . وهذا المعنى هو الذي رجحه شيخنا القرضاوي ، وسيأتي ذكر معنى آخر للمثاني .

لا تُدانيها النِّعم التي يُباهي بها الناس ، ويظنُّونَها كلَّ شيء ، وهي ليست بشيءٍ ، في مقابَل ما عند رسول الله ﷺ .

المراد بالسبع المثاني :

ما السبع المثاني هذه؟ المثاني جمع مثنى ، والمثاني تكرار كلمة اثنين اثنين ، مثنى وثلاث ورباع : ﴿ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ﴾ (سبأ:٤٦) ، المثاني هي الأشياء التي تثنَّى وتُكرَّر .

ولذلك قالوا : السبع المثاني هذه هي الفاتحة ؛ ولأنها سبعُ آيات بالبسملة ، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنه : «والبسملة هي الآية السابعة ، وقد خصَّكم الله بها»[1] .

وقد ثبت في الصَّحيح أنَّها السبع المثاني ، فعن أبي سعيد بن المُعلَّى قال : كنتُ أُصلِّي في المسجد ، فدعاني رسول الله ﷺ ، فلم أُجبْه ، فقلتُ يا رسول الله ، إنِّي كنتُ أصلي . فقال : ألم يقل الله : ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾؟ (الأنفال:٢٤) . ثم قال لي : «لَأُعَلِمَنَّكَ سورةً هي أعظم السُّور في القرآن ، قبل أن تَخْرُج من المسجد» .

ثم أخذ بيدي ، فلما أراد أن يخرج ، قلتُ له : ألم تقل : لأُعَلِمَنَّك أعظمَ سورةٍ في القرآن ؟

قال : نعم ، ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الفاتحة:٢) ، هي السبعُ المثاني ، والقرآنُ العظيم الذي أُوتيتُه»[2].

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٥٤٧/٤) .

(٢) رواه البخاري في التفسير (٤٤٧٤) ، وأحمد (١٥٧٣٠) ، وأبو داود في الصلاة (١٤٥٨) ، والنسائي في صفة الصلاة (٩١٣) ، وابن ماجه في الأدب (٣٧٨٠) .

وجاء في صحاح الأحاديث عن عدد من الصحابة : أنَّها الفاتحة[1] ، وهي سورة الحَمْد[2] ، وهي أمُّ القرآن[3] وأمُّ الكتاب[4] والسبع المثاني ؛ لأنها تُثَنَّى في الصلوات كلَّ يوم ، تُكرَّر هذه الفاتحة ؛ ولأنَّ فيها قِسْم ثناء وَقِسْم دعاء ، فالقسم الأول ثناء : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ، والقسم الثَّاني دعاء : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾

(الفاتحة: ١-٧) .

وكما جاء في صحيح مسلم ، أنَّ رسول الله ﷺ يقول : قال الله تعالى : « قَسَمْتُ الصَّلاة بيني وبين عبدي نصفين ، ولعبدي ما سأل ، فإذا قال العبد : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ . قال الله : حَمَدَنِي عبدي .

فإذا قال : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ . قال الله : أثنى عليَّ عبدى .

فإذا قال : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ . قال : مَجَّدَنِي عبدي .

فإذا قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ . قال : هذا بيني وبين عبدي ، ولعبدي ما سَأل .

---

(١) سميت بالفاتحة ، لأنه بها افتتح القرآن ، وبها تفتتح كتابة المصاحف ، وبها تفتتح الصلاة .

(٢) سُمِّيت بالحمد ؛ لافتتاحها بالحمد لله .

(٣) سُمِّيت بأمِّ القرآن وأم ّالكتاب : لأنها أوَّله ، ومتضمِّنة لجميع علومه ، ولا شتمالها على أهمِّ موضوعات القرآن ، وفي حديث الترمذي (٣١٢٤) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « الحمد لله أمُّ القران ، وأمُّ الكتاب ، والسبع المثاني » قال : هذا حديث حسن صحيح .

(٤) وسُمِّيت بالفاتحة : لأنه يبتدأ بكتابتها في المصاحف ، ويبدأ بقراءتها في الصلاة .

فإذا قال : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ . قال : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»[1] .

الفاتحة خلاصة القرآن :

على كلِّ حالٍ جاءت الأحاديث تقول : إنَّ الفاتحة هي السبع المثاني[2] ، وكما قال الإمام ابن القيم في كتابه : (مدارج السالكين ، شرح منازل السائرين إلى مقامات إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين) ، ذكر :

(وسرُّ الخلق والأمر ، والكتب والشرائع ، والثواب والعقاب : انتهى إلى هاتين الكلمتين ، وعليهما مدار العبودية والتوحيد ، حتى قيل : أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب ، جمع معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن ، وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن ، وجمع معاني القرآن في المفصَّل ، وجمع معاني المفصل في الفاتحة ، ومعاني الفاتحة في إياك نعبد وإياك نستعين .

وهما الكلمتان المقسومتان بين الربِّ وبين عبده نصفين ، فنصفهما له تعالى ، وهو إياك نعبد . ونصفهما لعبده ، وهو إياك نستعين)[3] .

وكما قال شيخنا سماحة الشيخ محمد عبد الله دِرَاز رَحِمَهُ الله : (القرآن هو دُسْتُور الإسلام ، والفاتحة هي دُسْتُور القرآن ، فهي دستور الدُّستور)[4] . ولذلك امتنَّ الله بها : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى ﴾ .

---

(١) رواه مسلم في الصلاة (٣٩٥) ، وأحمد (٧٢٩١) ، وأبو داود في الصلاة (٨٢١) ، والترمذي في تفسير القرآن (٢٩٥٣) ، والنسائي في الصلاة (٩٠٩) وابن ماجه في الأدب (٣٧٨٤) ، عن أبي هريرة .

(٢) وإنما وصفت بأنها (مثاني) لأنَّ بين جملها مطويات من المعاني جامعة لكليَّات كبرى من كليَّات الدين ، جاء بيانها التفصيلي في سائر سور القرآن .

(٣) مدارج السالكين (١/٧٤) .

(٤) مقال بعنوان : (نظرات في فاتحة الكتاب الحكيم) ، نشر في مجلة (المجلة) العدد (٧) ، ذو الحجة ١٣٧٦هـ ، يوليه ١٩٥٧م .

أقوال أخرى في معنى السبع المثاني :

هناك أقوال أخرى منها : أنَّ السَّبع المثاني هي : السَّبع الطِّوال أو الطُّوَل ، وهي : البقرة ، وآل عمران ، والنِّساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، والتَّوبة ، وعَدُّوا الأنفال والتوبة سورةً واحدةً . ومن المعلوم أنَّ هذه السور ـ أي : السَّبع الطوال ـ سور عظيمة ، ولكن هذه السُّور كلُّها مدنيَّة ، وسورةُ الحِجْر التي معنا الآن سورة مكيَّة ، لم يَكُنْ قرأَها النبيُّ ﷺ قبلها ، ولَمْ ينزل بهنَّ جبريل عليه السلام على قلبه ، ولذلك القول الأرجح أن السَّبْع المثاني هي : الفاتحة .

عطف العام على الخاص :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾

هذا يُسَمِّيه العلماء عطف العامّ على الخاصّ ، والكلِّ على الجزء ، تقول : جاء الأمير والقوم ، والقومُ فيهم الأمير ، ومثل قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ (آل عمران:٨٤) ، إنَّمَا ذُكِرَ تخصيص الأوَّل ثم التَّعميم ، يعني تهتمَّ بالخاصِّ ثم تذكر العام ، فتكون ذكرت الخاص مرتين : مرَّة بالنصِّ عليه ، ومرَّة بالاندراج في العام . فالسبع المثاني هي جزءٌ من القرآن ، ولكن ذَكَرَهَا لخصوصها ، لأهميَّتها ، ليَلْفِتَ النَّظر إليها .

القرآن الكريم كتاب هداية وإعجاز :

ثم قال : ﴿ وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ ، آتيناك القرآن العظيم ، هذا الكتاب الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت:٤٢) ، ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾(هود:١)، كتاب الهداية ، كتاب التشريع ، كتاب الأحكام ، كتاب الأخلاق ، كتاب العبادات ، كتاب المعاملات ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل:٨٩) .

الكتابُ المُعْجِز ، الذي أعجز البشر أن يأتوا بكتابٍ مثله : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ ﴾ (الطور:٣٤) ، أو ﴿ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ (هود:١٣) ، أو ﴿ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ (البقرة:٢٣) ، فلم يستطيعوا ، وحقَّ عليهم قول الله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء:٨٨) ، القرآن ، هذا الكتاب العظيم .

مدى نعمة الله على الأمة بالقرآن العظيم :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ ، فلا بدَّ أن تعرف مدى نعمة الله عليك ، ومدى إحسانه إليك ، حينما آتاك هذا القرآن ، ادَّخَره لك ولأمَّتِك ، لم يُنْزله على أيِّ أمَّة ، ادَّخر الله هذا الكتاب القرآن لأمَّةِ الخلود ، آخر أمَّة ، آخرُ دين هو الإسلام ، آخرُ رسول هو محمد ﷺ ، آخرُ كتاب هو القرآن ، ادَّخره لأفضل رسولٍ مبعوث إلى أفضل أمَّة ، بأفضل شريعة .

من أسماء القرآن الكريم وأوصافه :

وصف الله القرآن ببعضِ الأسماء والأوصافَ التي وصف بها نَفْسَهُ ، يعني إذا تأمَّلنا في القرآن ، نجد أنَّ الله وصف القرآن بعددٍ من أسمائه الحسنى :

العظيم : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ (الحجر:٨٧) ، والعظيم من أسماء الله الحُسْنَى .

الحكيم : ﴿ يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ (يس:١،٢) ، والحكيم من أسماء الله الحُسْنَى .

الكريم : ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ (الواقعة:٧٧) ، والكريم أيضًا من أسماء الله الحُسْنَى .

العلي : ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ (الزخرف:٤) ، والعليُّ أيضًا من أسماء الله الحسنى .

العزيز : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴾ (فصلت:٤١) ، أيضًا العزيز من أسماء الله الحسنى .

المجيد : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴾ (البروج:٢١)، والمَجِيدُ من أسماء الله الحسنى .

النور : ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ﴾(الأعراف:١٥٧)، النُّور مِنْ أسماء الله .

كلُّ هذه الأسماء من أسماء الله ، سمَّى الله بها هذا الكتاب ، القرآن العظيم .

وقد جاء عن بعض السلف : «مَن آتاه الله القرآن ، ثم رأى أنَّ أحدًا قد أُوتي أفضل ممَّا أوتي ، فقد صغَّر ما عظَّم الله عزَّ وجل»[1] . مَنْ آتاه الله القرآن ، علَّمَه القرآن ، حفَّظَه القرآن ، فهَّمَه القرآن واسْتَصْغَرَ هذه النِّعْمَة ، ورأى مَن عنده أموال أهمَّ من القرآن ، يكون قد صَغَّر نعمةَ الله العظيمة ، صَغَّرَ ما عَظَّمَ الله عزَّ وجلَّ .

التَّحذير من زهرة الدنيا وزينتها :

﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾

إذَا كان الله قد آتاك القرآن العظيم ، أَفَيَسُوغُ لك أن تَمُدَّ عينيك وتنظرَ نَظَرَ تَشَهٍّ إلى الذين يَتَمتَّعون بالدنيا ، إلى أصحاب الفضَّة والذَّهب ، إلى أصحاب القصور والمتَاع ، هذه كلُّها أشياءٌ تافهةٌ بِجِوَارِ ما آتاك الله من السَّبْع المثاني والقرآن العظيم .

وهذه هي وصية الله الثانية لرسوله ، بعد وصيته الأولى بالصفح الجميل .

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان باب تعظيم القرآن (٢٥٩٣) ، والبخاري في تاريخه الكبير (٣/٣١) ، بلفظ : « من أعطاه الله عزوجل حفظ كتابه ، لو ظن أن أحدا أوتي أفضل مما أوتي فقد غبط أفضل النعم» عن رجاء الغنوي ، مرفوعًا ، وقال الألباني في السلسلة الضعيفة (١٨١١) : ضعيف جدا .

وقال في سورة أخرى ، في سورة طه : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ (طه:١٣١) ، فتنة لهؤلاء ، ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ (المؤمنون:٥٥،٥٦) .

المال فتنة وابتلاء :

مَن يقول : إنَّ المَال نعمة؟ ﴿ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ ، هو فتنة ، قد يكون نعمة ، وقد يكون فتنة ، هو ابتلاء ، في حال السَّعَة والقلةّ : ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴾ (الفجر:١٥،١٦)، أي : ليس الأمر كما تتوهَّمون ، فليست كثرته دليلاً على الإكرام ، وليست قلَّته دليلاً على الإهانة ، بل هو في الحالين محنة وابتلاء .

قيمة الدنيا عند الله عزَّ وجلَّ :

الحياة الدنيا أيَّامٌ معدودةٌ وأنفاسٌ محدودة ، ثمّ يَرحل النَّاس إلى الحياة الباقية ، الدُّنيا كمَا يُسمُّونَها دار مَمَرٍّ ، لا دار مَقَرٍّ ، الدُّنيا قَنْطَرَةٌ ، فاعْبُرُوها ولا تعمرُوهَا ، الدُّنْيا لا تزن عنَّد الله جناح بعوضة ، و« لو كانت تَزِنُ عند الله جَنَاحَ بعوضةٍ ما سقى منها كافرًا شربة ماء »[1].

لهذا قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْلَآ ﴾ كراهة ذلك ﴿ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أي : أمَّة واحدة تجتمع على الكفر ، ﴿ لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝٣٣ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ۝٣٤ وَزُخْرُفًا ۚ

---

(١) إشارة إلى جزء من حديث رواه الترمذي في الزهد (٢٣٢٠) وقال : صحيح غريب ، وابن ماجه في الزهد (٤١١٠) ، والحاكم في الرقائق (٣٠٦/٤) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ، وقال الذهبي : زكريا بن منظور ضعفوه ، وقال الألباني في الصحيحة (٦٨٦) : صحيح لغيره ، عن سهل بن سعد .

﴿ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الزخرف:٣٣-٣٥) ، فإذا كانت الدُّنيا لا تَزِنُ عنْدَ الله جَنَاح بعوضة ، فماذا يكون نصيب الإنسان من جناح البعوضة؟!

الكفار المعاندون لا يستحقُّون الحزن عليهم :

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾

إذا كانوا لم يؤمنوا بك لا تحزن عليهم ، ولا تغتمَّ وتتألم ، فهم لا يَسْتَحِقُّون الحُزْنَ ، لا تَذْهَبْ نفسُك عليهم حَسَرات ، ذلك لأنَّ النبيَّ ﷺ كان حريصًا عليهم ، حريصًا على أنْ يَدْخُلُوا في هذا الدِّين ، حريصًا على أنْ يَسْتَنِيرُوا بنور القرآن ، حريصًا على أنْ يَهْتَدُوا بهُدَى الله ، ولذلك كان أحيانًا يَحْزَنُ وَيَشْقَى ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ (طه:١،٢) ، ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (الكهف:٦) ، ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (النحل:١٢٧) ، ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ (فاطر:٨) .

لا تَحْزَن عليهم ، لا تَشْغَل نفسك بالحزن عليهم ، لقد أدَّيتَ ما عليك ، أبلغتهم الرسالة ، وبشَّرتهم وأنذرتهم ، وأقمتَ عليهم الحُجَّة ، وجئتهم بالبيِّنات ، وأصبحوا هم الذين يتحمَّلون المسؤوليَّة . وهذه هي الوصية الثالثة لرسول الله ﷺ .

العناية بالمؤمنين المُتَّبعين لدعوة الحقِّ الربَّانية :

﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

لا تهتمَّ بالمشركين ، ولكن اهتم بمَن آمنوا بك ، بالذين اتَّبعوك ، بالذين قَبِلُوا دعوتك ، بالذين استعدُّوا أنْ يبذلوا كلَّ شيءٍ من أجل الدَّعوة التي آمنوا بها ، كن دائمًا مع هؤلاء ، ودعك من هؤلاء ، فالمؤمنون هم العُصْبَة الذين يقيم الله بهم الحُجَّة ، وينصر الله بهم الدين ، ويعزُّ بهم الإسلام ، ويعلي بهم كلمته ، ويرفع بهم

رايته : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (الأنفال:٦٤) .
وهذه هي الوصية الرابعة من الوصايا العشر لرسول الله ﷺ .

التواضع ولين الجانب مع المؤمنين :

﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ ، كلمة (اخفض جناحك) كناية عن التعامل باللين والرفق والتواضع ، وهي مأخوذةٌ من الطائر إذا أراد أن يحتضن فراخه ، يخفض جناحه لهم ، ويجعلهم تحت جناحه .

وفي سورة الشعراء : ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (الشعراء:٢١٥) ، وهنا ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ ، والله تعالى وصفه بقوله : ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٌ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة:١٢٨) ، ولذلك أُمر بخفض الجناح[1] .

دلالة كلمة (قل) في خطاب الرسول ﷺ :

﴿ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ﴾

﴿ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ ، أَبْلِغْهُم بهذه الرِّسالة ، وليس عليك إلاَّ أنْ تنذرهم .

وكلمة : (قل) ـ كما أشرنا غير مرَّة ـ تدُّل على أنَّ هذا الرسول يَتلقَّى ، وَيُؤْمَرُ : ﴿ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ ، بعض النَّاس خُيِّلَ له في وقتٍ من الأوقاتِ ، أن نحذف (قل) من القرآن ، في (قل هو الله أحد) والمعوذتين ، نقول : هو الله أحد ، أعوذ بربِّ الفلق ، أعوذ بربِّ الناس ، ونسي هذا الجاهل الأحمق أنَّ هذه تدُّل على

---

(١) وهكذا كان حاله عليه الصلاة والسلام مع أصحابه ، كما قال جلّ جلاله في وصفه : ﴿ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ ﴾ (آل عمران:١٥٩) ، وهكذا ينبغي أن يكون حال المؤمنين فيما بينهم ، يتواضعون ويتراحمون ، كما كان حال الصحابة رضى الله عنهم : ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ ﴾ (الفتح:٢٩) ، وكما وصف الله عباده المؤمنين : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (المائدة:٥٤) .

أنَّ الرَّسول مأمورٌ ومنهيٌّ ، وَمُخَاطَبٌ مِنْ سُلْطَةٍ عليا ، وهي قرآن مبين لا يجوز أن يحذف ولا أن يُسقط .

البشير النذير ﷺ وسبب تخصيصه بالإنذار في هذه السُّورة :

هو ﷺ نذيرٌ وبشيرٌ ، لأنَّ الله أرسل رُسُلَه : ﴿ مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (النساء:١٦٥) .

وقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (الأحزاب:٤٥)، وقال تعالى على لسان رسوله : ﴿ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

(الأعراف:١٨٨)

فلماذا قال هنا : ﴿ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴾؟ ، التَّبْشِيرُ : هو الإِخْبَارُ بما يَسُرُّ . والإنذار : هو الإخبار بما يَسُوءُ . وهو يُبَشِّرُ أهل الإيمان والطَّاعة بالجنَّة في الآخرة والسعادة في الدُّنيا ، وينذر أهل الكفر والمعصية والفسوق بالنَّار في الآخرة وبالشَّقاء في الدُّنيا ، لماذا لم يذكر هنا البشارة؟ لأنَّ المقام هنا مقام النِّذارة ، أحيانًا يقتصرُ القرآن على الإنذار دون التَّبْشِير ، وهذا تكرَّر في كثير من الآيات : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (هود:١٢) ، ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾(ص:٦٥) ، ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۗ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ (الرعد:٧).

وهكذا ، فهو منذرٌ ونذيرٌ ، أي : إنَّ مهمَّته عنْدَمَا يُكَذِّبُ المُكَذِّبون ، وَيَكْفُرُ الكافرون ، ويَتَمرَّد العُصَاةُ على ربِّ العالمين ، في هذه الحالة ليس أمامه إلاَّ الإنذار ، لا يستحقُّون البشارة ، هو نذيرٌ في هذه الحالة ، ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (فاطر:٢٤)، فيمكن أن نقول عن الرُّسل في بَعْضِ الأحيان : إنهم نُذُرٌ مِنَ اللهِ تَبَارك وتعالى ، لِيُخَوِّفوا المكذِّبين بعواقبهم في الآخرة ، ومَصَايِرَهم في الدُّنيا . وهذه هي الوصية الربانية الخامسة لرسول الله من ربه .

موقف المشركين من القرآن :

﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾

هل المقتسمون ، من القَسَمَ بمعنى اليمين ، أمْ مِنَ القسمة ؟ احتمالان عنْد المفسرين .

فالمقتسمون هم الذين تقاسموا وحلفوا فيما بينهم ، كما تقاسم جماعةُ ثمود على سيدنا صالح ، كما قال تعالى عنهم : ﴿ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ﴾ (النمل:٤٩) ، يدبِّرون قتله بياتًا بالليل . أو من القسمة ، أي : تقاسموا فيما بينهم أن يجعلوا القرآن عضين ، جزَّؤوا القرآن كأعضاء لحم الجزور أو الشاة ، فقسمٌ من القرآن آمنوا به ، وقسم كفروا به ، فما يعجبهم آمنوا به ، وما لا يعجبهم كفروا به : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (الزمر:٤٥) .

من هم المقتسمون الذين جعلوا القرآن عضين ؟

الرأي الأول : بعضهم قالوا : إنَّهم اقْتَسَمُوا مداخل مكَّة ، وزَّعوا أنفسهم ، خصوصًا في مواسم الحج ومواسم العمرة ، حينما تأتي قبائل العرب إلى مكَّة ، فيسألون عن محمد وعن الدين الجديد ، وعن الدعوة الجديدة ، قالوا : كان هناك ستة عشر رجلاً ، وبعضهم قال : أربعون رجلاً ، وزَّعوا أنفسهم على طُرقات مكة ومداخلها ، فَمَنْ سأل عن محمد وعن دين محمد ، فمنهم مَن يقول لهم : هو مجنون . ومنهم مَن يقول : هو ساحر . ومنهم مَن يقول : هو كاهن . ومنهم مَن يقول : هو شاعر . ومنهم مَن يقول عن القرآن : ﴿ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (الفرقان:٥) . ومنهم مَن يقول : إنَّه قول شاعر أو قول كاهن . وهكذا ، وزَّعوا أنفسهم ، وهذا أحدُ الآراء ، أنَّهم من أهل مكة ، ومن المشركين الذين جَعَلوا القرآنَ عضين ، وقسَّموه هذا يقول : سحر . وهذا يقول : كهانة . . . إلخ .

الرأي الثاني : وهناك رأيٌ يقول : إنَّهم مِنْ أهل الكتاب ، من اليهود ومن النَّصارى ، الذين آمنوا ببعض القرآن وكفروا ببعضه ، فما وافق فيه كتابهم قالوا : آمنَّا به ، وما خالف فيه كتابهم لم يؤمنوا به ، كما قال الله في خطابهم : ﴿ **أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ** ﴾ (البقرة:٨٥) ، فهؤلاء جَعَلوا القرآن عِضِين .

ومعنى عضين : جمع مفرده عِضَةٌ ـ بكسر ففتح ـ وزنه : فِعَةٌ ، أي : أعضاء ، وهو تفسير للتقسيم قبله ، أي : جعلوه أجزاءً ، جزَّؤوا القرآن ، جَعَلوه قِطَعًا ، آمنوا بالبعض وكفروا بالبعض ، حذفوا وأخفَوا ما لم يوافق أهواءهم . والقرآن كلٌّ لا يتجزَّأ ، لا يجوزُ الإيمان ببعضه والكفر ببعضه ، كما قال الله تعالى : ﴿ **وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ** ﴾ (المائدة:٤٩) ، لا بدَّ أنْ يُؤْخَذَ القرآن كلَّه ، وأنْ يُؤْمَنَ بالقُرآن كلِّه ، فهؤلاء جعلوا القرآن عِضِين .

سؤال المقتسمين عن أعمالهم :

﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾

﴿ **فَوَرَبِّكَ** ﴾ ، خطاب للنبي عليه الصلاة والسلام ، فهذه الآيات كلُّها خطاب للنبيِّ ﷺ وشدٌّ لأزْره .

﴿ **لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ أي : مجتمعين لا يتخلَّف منهم أحد . وضمير الجماعة يعود على المقتسمين ، والسؤال للتوبيخ والتبكيت . وهو يشمل كل المقتسمين ، من أهل الشرك ، وهم الأغلب أو من أهل الكتاب . ﴿ **عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ** ﴾ في الحياة الدنيا ، هؤلاء سيقفون بين يدي الله عزَّ وجلَّ يومًا ويسألهم عن أعمالهم أجمعين .

﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ ، لن يَفْلِتَ أحدهم من المُسَاءَلة ـ يا محمد ـ من أجل ماله ، أو من أجل سلطانه ، أو من أجل أتباعه وجنوده ، لا ، كلهم سَيُسْأَلون أجمعين عمَّا كانوا يعملون .

لن يفلت منهم أحد ، لا كبير ، ولا صغير ، ولا غنيٌّ ولا فقير ، ولا أميرٌ ولا مأمور ، كلُّهم مسؤولون . جاء عن بعض السلف : أنَّ الناس سيُسألون يوم القيامة عن أمرين : عن توحيد الله : ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ (الشعراء:٩٢) ، وعن النبوَّة : ﴿ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾(القصص:٦٥). وسيُسأل الإنسان أيضًا عن النعيم : ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (التكاثر:٨) .

وجاءت الأحاديث أنَّ الإنسان يُسْأَلُ يوم القيامة : «عن عُمُره فيمَا أفناه ، وعن شبابه فيمَا أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه؟»[1] .

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ ، يُسْأَلون عن أعمالهم خيرًا كانت أم شرًّا ، صلاحًا كانت أم فسادًا ، يُسْأَلُ الإنسان عن عمله ، فعليه أن يُحَضِّرَ للسؤال جوابًا ، كما قال بعض السلف : اسألوا أنفسكم قبل أن يصير السؤال إلى غيركم ، حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن تُوزن عليكم .

أما قوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ (الرحمن:٣٩) ، فالمراد به نفي سؤال الاستعلام .

الأمر بالجهر بالدعوة :

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾

اصدع : اجْهَر بما تُؤْمَر ، وبلِّغ الناس رسالتك جهارًا وعلانية . فقد كانت الدعوة سرًّا وخفية حتى نزلت هذه الآية تأمر بالجهر والإعلان ، يقول سيِّدنا عبد الله

---

(١) رواه الترمذي في الزهد (٢٤١٦) وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ إلا من حديث الحسين بن قيس ، وحسين بن قيس يُضَعف في الحديث من قبل حفظه ، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٢٨) : حسن لغيره ، عن ابن مسعود .

ابن مسعود رضي الله عنه : كان الصحابةُ والنبيُّ ﷺ يَسْتَخْفُونَ بدعوتهم ، فلمَّا نزلت هذه الآية : صَدَعَ الرسول بالدَّعوة دون توانٍ ولا تقصير[1] .

كلمة الصَّدع في اللغة تعني : الشَّق ، من صدع الزجاج أو غيره ، وهنا بمعنى : الجهر والإعلان ، لأن الصَّدْعَ يُحْدِثُ صوتًا .

هنا لا بدُّ مِنَ الجهر ، الإعلان بالدَّعوة ، لا معنى للإسرار بالدَّعوة الآن ، يجب أن يجهر الجميع بالدَّعوة ، فاجْهَر بالدعوة ولا تُخافت بها وأعلنها ، فأنت صاحبُ الحقِّ ، ولا ينبغي لصاحب الحقِّ أن يخافت به ، بل الحقُّ ينبغي أن يرتفع صوته ، ويعلو مناره .

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ ، بما أمرك الله به : بكل ما جاء به القرآن ، من عباداتٍ ومعاملاتٍ وأخلاق وتشريعاتٍ وعقائدَ ، كلُّ هذا ، وكلُّ ما تؤمَرُ به ، كما قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ (المائدة:٦٧).

الأمر بالإعراض عن المشركين :

﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

لا تَشْغِل نفسك بالمشركين ، أعرض عنهم ، ولا تلتفت إلى ما يفعلون ولا تُخاصمهم ، ولا تَأْبه بمُعارضتهم ، وعِنَادهم ، ولا تَخَفهم ، فإنَّ الله كافيك مكرهم ، وحافظك من كيدهم ، كما جاء في أكثر من آية في القرآن : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام:١٠٦) ، ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٢٩ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ (النجم:٢٩،٣٠) ، ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ (السجدة:٣٠)، ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (الأعراف:١٩٩) .

---

(١) سيرة ابن هشام (٢٣٧/١) .

أعرض عن المشركين ، لا تَشْغَل نفسك بهم ، وقال : ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (الأحزاب:٤٨) .

حتى المنافقين : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ (النساء:٦٣) ، ﴿ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (النساء:٨١) ، أي : اشغل نفسك بالدَّعوة ، لا تَشْغَل نفسك بهؤلاء ، أعرض عنهم ، تولَّ عنهم ، لا تُعِيرُهم التفاتة .

وقد تضمنت هذه الآية وصيتين : السادسة ، وهي قوله تعالى : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ ، والسابعة وهي قوله : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

كفاية اللهِ لرسوله أمر المستهزئين :

﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾

وتأتي المعونة من الله على قدر التكليف والمُؤْنة ، فعندما كلَّفه بإعلان الدعوة والجهر بها أخبره سبحانه بكفايته وحمايته عليه الصلاة والسلام من كَيْد المستهزئين وأذاهم ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ ، الساخرين المتهكِّمين ، نحن كَفَيْنَاكَ أمْرَ هؤلاء ، وقَيْناك شرَّ هؤلاء ، وأغنيناك عن مجابهتهم ، فلا تَحْمِل همَّهم ، كما قال له : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (المائدة:٦٧)، لا تَخَفْ ، فاللهُ يَعْصِمُكَ مَنَ النَّاس .

هنا يقول أيضًا : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ ، الذين يَسْتَهزِؤون بك وبدعوتك وبقرآنك وبأتباعك ، كل هذا يجعلونه مصدرًا للهزء والسُّخْرية ، حتى

الأتباع الضعفاء الفقراء يسخرون منهم ، فيقول : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ ، كأنَّ الاستهزاء أصبح صفةً ثابتةً لهم ، تُعْرَفُ بهم ويُعْرَفُونَ بها[1].

المستهزؤون يشركون مع الله إلهًا غيره :

﴿ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾

هؤلاء المستهزؤون يكفيهم شرًّا أنَّهم يعبدونَ مع الله إلهًا أوآلهةً أخرى ، لا تَضُرُّ ولا تَنْفَعُ ، ولا تُبْصِر ولا تَسْمَعُ ، ولا تُعْطِي ولا تَمْنَعُ ، لا يملكون لأنفسهم ضرًّا

---

(١) ذَكَرَ أصحاب السِّيَر أنَّ المستهزئين بالرسول ﷺ هم أكابر المشركين في الكفر والعداوة ، وذكروا منهم خمسة ، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم ، وهم : الوليد بن المغيرة ، من بني مخزوم ، وكان رأس المستهزئين ، والأسود بن عبد يغوث من بني زهرة ، والأسود ابن المطلب ، من بني أسد بن عبد العزّى بن قصي ، والحارث بن الطُّلاطلة من خزاعة ، والعاص بن وائل من بني سهم ، وكلُّ هؤلاء أهلكهم الله جميعًا في مكة ، وكان هلاكهم العجيب من أهم الصوارف لأتباعهم عن الاستهزاء بالنبي ﷺ .

قال ابن إسحاق : حدَّث يزيد بن رومان ، عن عروة بن الزبير ، أو غيره من العلماء : أنَّ جبريل أتى رسولَ الله ﷺ وهو يطوف بالبيت ، فقامَ وقامَ رسول الله ﷺ إلى جنبه ، فمرَّ به الأسود بن المطَّلب فرمى في وجهه بورقة خضراء ، فعمي .

ومرَّ به الأسود بن عبد يغوث ، فأشار إلى بطنه ، فاستسقى بطنه ، فمات منه حَبَنًا ـ داء في البطن يَعظُم منه ويَرِم ـ .

ومرَّ به الوليد بن المغيرة ، فأشار إلى أثر جُرح بأسفل كعب رجله ـ كان أصابه قبل ذلك بسنتين ـ وهو يَجُرُّ إزاره ، وذلك أنَّه مرَّ برجل من خزاعة يريش نَبْلاً له ، فَتَعَلَّقَ سهم من نَبْله بإزاره ، فَخَدَشَ رجلَهُ ذلك الخَدْش ، وليس بشيء ، فانتقض به فقتله .

ومرَّ به العاص بن وائل ، فأشار إلى أخمص قَدَمه ، فخرج على حمار له يريد الطائف ، فَرَبَض ـ أي : الحمار ـ على شِبْرِقَةٍ ـ نباتٌ حجازي يؤكل وله شوك ، وإذا يبس سُمِّي الضريع ـ فدخلت في أخمص رجله منها شوكة فقتلته .

ومرَّ به الحارث بن الطُّلاطلة ، فأشار إلى رأسه ، فامتخط قيحًا ، فقتله . ينظر : السيرة النبوية لابن هشام (٢/٢٥٧).

ولا نفعًا ، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا ، ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ (الفرقان:٣) ، هؤلاء يجعلون مع الله إلها آخر ، يكفيهم هذه التُهمة ، يكفيهم هذه الجريمة ، أنَّهم أشركوا مع الله إلهًا غير الله ، ولا يستحق العبادة أحدٌ إلا الله وحدَه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ (النساء:٤٨).

تهديد ووعيد :

﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

هذا تهديدٌ ووعيدٌ بالانتقام مِنَ الله عزَّ وجلَّ ، للذين يجعلون مع الله إلهًا آخر ، افتراءً عليه ، فسوف يعلمون ويُدركون باليقين والعِيان عاقبةَ أمْرِهم ، وجَزاءَ كُفرهم ، واستهزائهم برسوله ، ونتيجة سوء أعمالهم من عذابٍ أليم في نار جهنَّم .

إرشادُ النَّبيِّ ﷺ إلى ما يُزيل همَّه ويَشْرُحُ صَدْرَه :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾

ثمَّ خُتمت السُّورة بهذه الآيات : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾[1].

---

(١) وفيها تتمة الوصايا للنبي ﷺ وهي : الوصية الثامنة : أن يسبح بحمد ربِّه ، والوصية التاسعة : أن يكون من الساجدين له ، والوصية العاشرة : أن يستمر على عبادة ربه ، ويقوم بوظائف رسالته الدعوية ، حتى يأتيه الموت الذي تنتهي به حياته .

خطابٌ للنبيِّ ﷺ مِنْ ربِّه : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ ﴾ ، اللَّام هُنَا موطئةٌ للقسم ، و(قد) للتحقيق ، وهذا لتأكيد الكلام[1].

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾

﴿ يَضِيقُ صَدْرُكَ ﴾ ينقبض ويغتم ويعجز عن التَّحمُّل،والرَّسول بشرٌ من البشر ، يُؤْذِيه ويُحْزِنُه ، ويضيق صدره ، وتتألمَّ نفسه بِمَا يَسْمَعُه مِن كلام مُؤْذٍ عن القرآن ، ﴿ قَالُوا مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى ﴾ (القصص:٣٦) ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَـٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (الأنعام:٢٥) ، وأنَّه ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (الحاقة:٤١،٤٢) ، هذا آذاه .

إذا سمع الكلام عن شخصه عليه الصلاة والسلام : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾

(الطور:٢٩،٣٠) .

الكلام عن دينه وتعاليمه ، الكلام عن الصحابة ، وفي آيات أخرى يقول الله تعالى لنبيِّه ﷺ : ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ (المزمل:١٠)،

---

(١) التحقيق هنا بـ (قد) ، وإن كانت قبل الفعل المضارع ، لأنَّ هذا الفعل يفيد الماضي والحاضر والمستقبل . فالله سبحانه يؤكِّد لرسوله بعبارة (لقد) مع مخاطبته له بضمير المتكلِّم العظيم ، أنه جل جلاله أحاط علمه بكل شيء ، يعلم حتى ما يحدث في صدره ﷺ من انقباض نفسي وضيق بسبب ما يقوله الكفار من أقوال فيها كفر وغمز وتجريح . وإنه تأكيد علم الله بما يضيق به صدر نبيه الأمين تسرية لنفسه ، وفيه كمال معاونته ، وفيه مع كل هذا ما يفيد الإنذار للمشركين على ما يقولون . وأوصاه عزَّ وجل بثلاث وصايا تزيل همَّه وتشرح صدره : الأولى : أن يسبِّح بحمد ربه ، والثانية : أن يكون من الساجدين المصلين الخاضعين له سبحانه . والثالثة : أن يتابع عبادته لربه ، وأن يقوم بوظائف رسالته التي اصطفاه الله لها من دون سائر خلقه ، حتى آخر لحظة ، من عمره في الحياة الدنيا . وهذه الوصايا الثلاث هي تتمَّة الوصايا السبع التي تقدَّمت في مطلع هذا الدرس الأخير من هذه السورة .

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ (يونس:٦٥) ، مِمَّا يَدُلُّ على أنَّ الكلام قد يُؤْذِي أشدَّ مِنَ التَّعذيب الجسديِّ ، عند ما يضرب شخصٌ شخصًا آخر ، هو يُؤْلِمُ جَسَدَهُ ، ولكن عنْدَما تقول لأخيك : كلمةً سيِّئةً ، هذه تُؤْذِي النَّفس ، التَّعذيب يجرح الجسد ، والأذى القوليّ يَجْرَحُ القلب .

جِرَاحَاتُ السَّنَانِ لهَا التآمُ ولا يَلْتَامُ مَا جَرَحَ اللِّسَانُ

يمكن لِجُرْحِ السِّنان وَجُرْحِ السِّكين أو السيف أن يُداوى ويَلتئم ، أما جُرْح القلب بالكلام المُؤْذي والكلام الكاذب والكلاَّم المُخْتلق ، فهذا هو الذي قال الله له فيه : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ .

ومن أشدِّ الأمور التي كانت تُؤْذي النَّبيَّ ﷺ ، أنَّهم قالوا عن الله عزَّ وجلَّ : أنَّ له ولدًا : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ (البقرة:١١٦) ، ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص:٣،٤) .

وقالوا : الملائكة بنات الله : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ (الزخرف:١٩) .

وقالوا : عُزير ابن الله . وقالوا : المسيح ابن الله : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (التوبة:٣٠) .

وقالوا إنَّ لله شركاء : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (الأنعام:١٠٠) .

وقالوا إنَّ لله أندادًا : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ (البقرة:١٦٥) ، وقالوا وقالوا . . آذوا الله

سبحانه وتعالى بهذه الافتراءات ، وآذوا نبيَّه ﷺ ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ .

مقابلة الأذى بتسبيح الله وحده :

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾

بماذا تقابل هذه الأقوال الكاذبة والمُؤْذية ؟ قَابِلْهَا بذكر الله ، بالتَّسبيح ، باللُّجوء إلى الله ، باللِّياذ بالله عزَّ وجلَّ كي يذهب عنك ما تجده في صدرك من ضيق وحزن :

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ، أي : نزِّه الله عمَّا يصفون ويشركون .

والحمد : الثناء الجميل على النِّعم بالقلب واللسان والعمل[1] .

الإنسانُ المؤمنُ في حالة النَّصر يُسَبِّحُ بحمد الله ، وفي حالة الضِّيق والشِّدَّة يُسَبِّحُ بحمد الله ، ولذلك قال الله لرسوله : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (النصر:١-٣) ، فإذا نزلت بك الشدائد ، سبِّح بحمد ربك . وكذلك إذا منَّ الله عليك بالفتح أو بنصر من عنده ، فلا تَنْسَ تسبيح الله وحمده ، فالتَّسبيح بحمد الله مطلوب في وقت الشدائد ، وفي وقت النصر والعافية .

سبِّح بحمد ربك عند النصر ، وسبِّح بحمد ربك عند الشدَّة ، وسبِّح بحمد ربك في السراء والضراء ، في النعماء والبأساء ، في الهزيمة والنصر ، في كلِّ وقت كن مسبحا بحمد الله عزَّ وجلَّ .

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ، إذا ضاق صدرك بأقوال هؤلاء الباطلة ، فنزِّه ربَّك جلَّ وعلا عن كلِّ ما لا يليق بكماله وجلاله ، مع الثناء عليه بجميع ما هو أهلُه من صفات الكمال والجلال والجمال .

---

(١) الحمد لله هو الثناء على الله بصفات كماله الذاتيَّة المطلقة ، على وَفق المحامد التي يحمد الله بها ذاته وصفاته على ما يعلم من كمالاته .

فالتَّسبيح : تنزيه الله عن كلِّ نقص . والحمد : الثناء على الله بكلِّ صفات الكمال . بأن تقول : (سبحانَ الله والحمدُ لله) . أو (سبحانَ الله وبحمده ، سبحانَ الله العظيم) .

وبالتَّسبيح بحمد الله خَتَمَ الإمام البخاري كتابه (الجامع الصحيح) بهذا الحديث : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم »[1] .

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ، نَزِّهْ عن كُلِّ نَقْص ، وانْسُبْ إليه كلَّ كمال ، واحْمَدْه على كلِّ نعمة .

اللجوء إلى الصلاة :

﴿ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾

أي : قم إلى الصَّلاة ، لأنَّ السجود هو أبرز ما في الصَّلاة ، وكما جاء في الحديث : « أقربُ ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء »[2] . أن تُعَفِّرَ جبهتك بالسجود لله على الأرض ، ﴿ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ ، أي : أقم الصَّلاة ، صلِّ لله ، والصلاة أبرز ما فيها الركوع والسُّجود ، والسُّجود أفضل ما في الصَّلاة[3] .

---

(١) متفق عليه ، رواه البخاري في التوحيد (٧٥٦٣) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٤) ، كما رواه أحمد (٧١٦٧) ، والترمذي في الدعوات (٣٤٦٧) ، وابن ماجه في الأدب (٣٨٠٦) ، عن أبي هريرة .

(٢) رواه مسلم في الصلاة (٤٨٢) ، وأحمد (٩٤٦١) ، وأبو داود (٨٧٥) ، والنسائي (١١٣٧) ، كلاهما في الصلاة عن أبي هريرة .

(٣) فالإكثار من التسبيح والتحميد مع خشوع القلب له تأثيرٌ كبيرٌ في شرح الصدر ، وتنفيس الهم ، وتخفيف الحزن ، كما أنه يمدُّ الإنسان بقوة وعزيمة تكون عونًا له ـ بإذن الله ـ على مواجهة المصاعب والنوائب . وكذلك الإكثار من الصلاة وإطالة السجود يؤدي بفضل الله إلى انشراح الصدر ، وإزاحة الضيق والهم ، كما قال عزوجل : ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ (البقرة:٤٥) .

وكثيراً ما يعبِّر القرآن عن الصلاة بالركوع والسجود، أو بالركوع فقط، أو بالسجود فقط، وكان النبيُّ إذا حَزَبه أمر - اشتدَّت به أزمة من الأزمات - فَزَع إلى الصلاة[1]. كما أمرنا ربُّنا تعالى بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ (البقرة:١٥٣).

فالصلاة مَدَدٌ في معركة الحياة، مدد عندما تُلمُّ بك الخطوب، وتُحيط بك الكروب، فالجأ إلى الصلاة.

فالإنسان في وقت الشدَّة يلجأ إلى الله حتى لا يأخذ اليأس منه مأخذه، ويقترب من القنوط، ويبعد من رحمة الله: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ (الحجر:٥٦)، ﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (يوسف:٨٧).

الاستمرار على العبادة حتى الموت:

﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾[2]

استمرَّ في عبادة الله عزَّ وجلَّ، فإنَّ الله ما خلقك إلا لعبادته: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ (الذاريات:٥٦-٥٨).

اعبد ربَّك في جميع أوقاتك، استمرَّ في هذه العبادة، اعبد ربَّك الذي خلقك، والذي أرسلك، والذي أنزل عليك الكتاب، والذي أيَّدك بملائكته، والذي يرعاك في كلِّ أحوالك، فهو أحق من تعبده.

---

(١) إشارة إلى الحديث الذي رواه أحمد (٢٣٢٩٩) وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف، وأبو داود في الصلاة (١٣١٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٠٣)، عن حذيفة ابن اليمان.

(٢) هذه الوصية للرسول ﷺ هي: الوصية العاشرة والأخيرة في هذا المقطع من السورة. بدءاً من الوصية الأولى: ﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾.

كم تعبده ؟ سنتين أم ثلاثة أم عشرة؟ ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾.

واليقين هنا : هو الموت ، كما حكى القرآن عن المجرمين المُكذِّبين ، حين يَصْلَوْنَ سَقَر ، ويَدْخُلُونَ جهنم ، ويسألهم أصحاب اليمين : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴾(المدثر: ٤٢-٤٧)، أي : حتى أتانا الموت . فكلمة اليقين هنا تعني : الموت .

ويُؤيِّد هذا ما أخرجه البخاري في صحيحه ، من حديث الزهري ، عن خارجة ابن زيد بن ثابت ، عن أمِّ العلاء (امرأة من الأنصار) : أنَّ رسولَ الله ﷺ لمَّا دخل على عثمان بن مظعون وقد مات ، فقالت أمُّ العلاء : رحمة الله عليك أبا السَّائِب! فشهادتي عليك لقد أكرمك الله .

فقال النبيُّ ﷺ : « وما يدريك أنَّ الله أكرمه ؟» .

فقلتُ : بأبي أنت يا رسول الله ، فَمَنْ يكرمه الله !؟

فقال رسول الله ﷺ : « أمَّا هو فقد جاءه اليقين ، وإنيِّ لأرجو له الخير ...»[1].

فاليقين هنا : هو الموت ، والموت لا شكَّ فيه ، كلُّ مخلوق سيموت ، إن لم يكن اليوم فغدًا ، أو بعد غد ، أو بعد عشر سنين ، أو أكثر ستموت .

فاستمرَّ عابدًا لربِّك ما دام فيك عرقٌ يَنْبُض ، وما دام فيك نَفسٌ يتردَّد ، اعبد الله إلى آخر لحظة . ولذلك أمر النبيُّ ﷺ بالاستمرار في الصلاة َما دام عقل الإنسان واعيًا ، وما دام يفهم الخطاب ، قال لعمران بن حُصين : « صَلِّ قائمًا ، فإن لم تستطع فقاعدًا ، فإن لم تستطع فعلى جَنْب»[2]. حتى بالإشارة بالإيماء ، لا تترك الصلاة ، فما دمتَ تعقل الخطاب ، عليك بالصَّلاة .

---

(١) رواه البخاري في الجنائز (١٢٤٣) ، وأحمد (٢٧٤٥٧) ، عن أم العلاء .

(٢) رواه البخاري في أبواب تقصير الصلاة (١٠٦٦) ، وأبو داود في الصلاة (٩٥٢) ، والترمذي في أبواب الصلاة (٣٧٢) ، عن عمران بن حصين .

متى تسقط عنك الصلاة ؟ إذا سقط عنك الفَهم ، ولم تعرف ما حولك . أما ما دمتَ تعقل ، فأنت مكلَّف : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [1].

التكليف لا يسقط عن المُكلَّفين :

هناك أناس من منحرفي الصوفية يقولون : إنَّ الإنسان عليه أن يعبد الله حتى يصل إلى المعرفة ، فإذا صار عارفًا بالله ، وَوَصَل إلى اليقين بالله ، ودرجة الكشف والشهود ، سقط عنه التكليف ، وسقطت عنه العبادة ، اعبد ربَّك حتى يأتيَك اليقين ، وقد أتاني اليقين ، فلماذا أصلِّي؟ لماذا أصوم؟ لماذا أُسبِّح؟ جاءني اليقين . هذا افتراءٌ على الله ، وافتراءٌ على دين الله ، وضلالٌ في الفَهم ، وهو مردود بالكتاب وبالسنة وبعمل الصحابة ، وبمقتضى التكليف الإلهي ، فالإنسان مُكلَّف طوال حياته منذ بلغ حتى يلقى الله عزَّ وجلَّ .

أَعْرَفُ النَّاس بالله : هم أنبياء الله ورسله ، وهؤلاء ظلُّوا يعبدون ربَّهم حتى الموت ، كلُّ أنبياء الله ورُسله ، وعلى رأسهم خاتمهم محمَّد ﷺ ، الذي ظلَّ يعبدُ ربَّه إلى أنْ آتاه اليقين ، لم يستطع أن يَؤُمَّ النَّاس فرشَّحَ أبا بكر ، وأمره أن يُصلِّي

---

(١) والخطاب وإن كان للنبي ﷺ فهو عامٌّ وشامل ، وغيره ﷺ أُولى به ، لأنه ﷺ معصومٌ عن الغفلة ، فلا تكون منه فترة عن العبادة ، وانقطاع عن الطاعة أبدًا . ولما سُئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن عمل رسول الله ﷺ؟ قالت : « كان عمله ديمة ـ مستمرًا ـ وأيكم يطيق ما كان رسول الله ﷺ يطيق؟» متفق عليه : رواه البخاري في الصوم (١٩٨٧) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٨٣) .
وقال ﷺ : « إنَّ أحبَّ الأعمال إلى الله ما دُووم عليه وإنْ قل» متفق عليه : رواه البخاري في الصوم (١٩٧٠) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٨٢) ، عن عائشة .
ولا تقتصر العبادة في الإسلام على الصلاة والصيام والزكاة والحج ، وإنما تمتد إلى كل شؤون الحياة ، وهذه هي عبادة النبي ﷺ التي بنى بها أفضل المجتمعات وأخرج خير الأمم ، وأنتج أعظم الحضارات الإنسانية وأقواها وأزكاها وأزهاها .

بالنَّاس ، ويُصلِّي ﷺ وراءه[1]. وهكذا ظلَّ عابدًا ربَّه ، موصولاً به حتى أتاه الموت ، الذي لا شكَّ في وقوعه لكلِّ حيٍّ ، حتى صار كأنَّه اليقين نفسه .

وبهذا تنتهي سورة الحِجْر المكية ، والحمدُ لله الذي بنعمته تتمُّ الصَّالحات ، وتتحقَّق الأمنيات ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا .

---

(١) إشارة إلى حديث : « صلى رسول الله ﷺ خلف أبي بكر في مرضه الذي مات فيه قاعدا»، رواه الترمذي في الصلاة (٣٦٢) وقال : حسن صحيح غريب ، وصححه الألباني ، قال الزيلعي في نصب الراية (٤٨/٢) بعد أن ذكر أحاديث الصلاة خلف أبي بكر ، وأحاديث عدم الصلاة قال : إن هذه الأخبار كلها صحيحة ، ليس فيها تعارض ، فإن النبي ﷺ صلى في مرضه الذي مات فيه صلاتين في المسجد : في إحداهما : كان إماما ، وفي الأخرى كان مأموما ، قال : والدليل على ذلك أن في خبر عبيد الله بن عبد الله عن عائشة أنه عليه السلام خرج بين رجلين : العباس . وعلي ، وفي خبر مسروق عنهما : أنه عليه السلام خرج بين : بريرة وثويبة .